سطور زرق

رعشة البحر ووجهه وحديثه واصواته

لرامي الراعي

وقفت امام البحر اسأل عن رعشته واحلّل معانيها

لماذا يرتعش البحر ؟؟

أهو يرى تعسه على رحابته وعظمته سجيناً في مكان رُسم لهُ في الارض لا يستطيع ان يفلت من قضبانه ليهجم على اليابسة عدوّته الازلية ويغمرها فيرتعش رعشةَ الاسد السجين الذي يرى امامه فطعاماً يمكنهُ ان يفترسها ولكن الحديد يقف بينهُ وبين مطامعه ، رعشة التقوي الشاعر بقوته ولكنهُ لا يستطيع ان يمارسها . .

ام هو يشعر بجريمته عندما يمرّ على بقايا الابطال من غرقاه فيرتعش رعشة الخاطىء الذي حالف الموت فاعطاه في اعماق الماء مكاناً يلقي فيها بعض الخلائق التي حصدتها مناجله وضاقت بها الاضرحة ...

ام هو يضنّ بدرره المستقرة في ثلبه ويخاف عليها من حيتانه فيرتعش رعشة الغني امام الايدي الجريئة التي تمتد حول خزائنه الغاصة بذهبها الموفور الدفين ...

ام هو نبيٌّ يرى كل يوم بعين النبوّة يومه الاخير الذي يسدل فيهِ على روايته ستارها الازرق ويعود الى اليابسة فيرتعش رعشة الحيّ المتشبّث بيومه الخائف من غده ...

ام هو شاعر عبقري روحاني نوراني خلق ليعيش في عالمه الخاص بين افكاره واحلامه وعواطفه بعيداً عن الانسان والانسانية قريباً من نفسه ومن خالقه وليكون جزيرة بارزة مستقلة عن التراب وابنائه في بحر الوجود ، يرى نفسه مُلكاً لسواهُ وساحة عامة يطأها كل عابر وصدراً مفتوح الرئتين والقلب والضلوع تشقّه السفن والدارمات والطرادات والنسّافات على مختلف اشكالها والوانها وتنفث فيهِ دخانها وتصبح صيحاتها وتلقي مراسيها فيرتعش رعشة العبقرية التي أقامت لنفسها المآكل العاجية فاستباح حماها واسردّ حاجبها : رعشة الشاعرية التي سُدلت الستائر على آلهتها فزقّتها الايدي النفاسية الاثيمة ...

ام هو يرى في مائدِ تلك الدموع التي التقطها من العيون الباكية وانهُ من اجل ذلك يجسّم البأس وان كل كثيب يسبّ فيه تمثالهُ كأسه وانهُ مجموعة الهالات في كأس واحدة ومجموعة الدموع في عين واحدة فترتعش فيهِ الوحية الالم التي اتخذته لها معبداً . . .

ام هو يحدق بالهِ « نيتون » ويؤمن بانهُ الله الآلهة فيرتعش رعشة العبادة والايمان . . .

ام هو بين موجته المجنونة وغايته المجهولة رجل اضاع عقلهُ فارتعش رعشة الجنون . . .

ام هو يرى الزبد في موجته خمرة في فمه فيرتعش رعشة الثمل . . .

ام هو المرأة المرأة ذات العينين الزرقاوين والقامة التي هي اطول من قامات النساء جميعهنّ مندغمات في قامة واحدة ، يراها « كوبيد » اله الحب منتهى حبّه واطار خياله فيسبح بثوبها الازرق دم كل سهم من سهامه بعد ان يرمي بها العشاق فترتعش الرعشة الكبرى ، رعشة الرعشات ، الرعشة التي يرى فيها كل جميل حبه وكل جميلة وجهها الساحر وقلبها الخفاق . . .

لا أدري لماذا يرتعش البحر ولا هو يدري ، هو البحر ومع ذلك فهو لا يعرف نفسه ولعله لا يعرف نفسهُ لانهُ البحر . . .

ان رعشته هي سرّه ، سر قوته ، سر الهته ، هي عينه الناظرة واذنه السامعة وفمه الناطق ، هي روحه بل هي كل شيء فيه وهو يجهلها لان عظمته تمادت وبعدت علا الى الحيث لا يراها . . . ومن بلايا الانسانية ان صغيرها وكبيرها يجهلان نفسيهما فالصغير لا يرى في صغره لنفسه وجهاً والكبير يرى نفسه في كبره واتساع خياله على صور وألوان عديدة يضيع بينها فلا يدري ايها يختار . . .

البحر مرآة رأيت فيها وجوهاً لم أرها في مرآة ورأيت هذه الوجوه تواكبها ذكريات بعيدة

رأيت أبانا القديم نوح يختال بفلكه على اليمّ وعلى دؤوس الغرق ثم يستقر على سفح جبل ارارط فسألت نفسي : أين امتطى نوح تلك المزايا الفريدة التي اصطفاه من اجلها الله فأغرق الخلائق وانقاه حيًّا ، سألت هذا السؤال لكي أنسج على منوال ذاك الرجل

اليأس العظيم فأنال حظوة في عيني الرب عند ما تطفح الكيل ويبلغ سيل الخطايا رب الخليقة فتُسْمِر الخليقة بطوفان آخر . . .

ورأيت فوق القرون وثبة هائلة رمتني تحت اقدام المسيح فرأيته يمشي على الماء وحييته باسم الوداعة والتقى والحلم والصبر والالم والاستشهاد والرحمة والعدل والحكمة وفتحت كتاب التضحية واخذت اقرأ سير الشهداء وتحيلت على كل موجة صليباً . . .

ورأيت القراعنة يتتبعون آثار موسى السائر الى ارض ميعاده فتغرق جيوشهم وخيولهم وأعلامهم فقلت : أين هم الظلام المستبدون يرون دماء ضحاياهم في هذا البحر الاحمر وهل يشعرون ان لكل منهم بحره الاحمر يغرقه باسم الضعيف المظلوم وباسم الحرية المسجونة . . . .

وسمعت اصواتاً طنّانة سخّابة متنافضة تخرج من اعماق البحر فتتجاوب اصداؤها في اودية كياني ، والبحر كلماته وقاموسه ولغته واحساسه وخواطره . . .

سمعت صوتاً يقول لي : انظر اليّ كيف تتلاقى في ساحتي جميع قوات الارض والسماء كأنها على موعد في بيتي وكيف تشق عبابي السفينة ويلعب باحشائي الغوّاص وكيف يرتد عني الطرف وهو كليل ، انظر وكن مثلي صبوراً رحب الصدر بعيد المطامح واسع الخيال . . . .

وسمعت صوتاً آخر يقول :

صارع صخورك كموجاتي فالحياة جهاد مستديم وأنا عنوان هذا الجهاد ، كن مثلي وثّاباً دائماً وأبداً واذا استرحت من وثبة الامس فلتكن راحتك تأهباً لوثبة الغد . .

وقال صوت ثالث :

أنا مع عظمتي ورحابتي رجل اسير تقيّده شواطئه التي لايستطيع ان يجاوزها فاذكر دائماً وابداً انك مهما علوت وعظمت وشمخت وحملت الصواجلة وركبت العروش لا تستطيع ان تكون حرّاً ، واذكر دائماً وابداً ان الغاية من الحياة انما هي السعي طيلة ايامك ولياليك المعدودة للتملص من ربقة الشاطىء الذي يقف في طريق نفسك الطامحة فيمنعها من ان تنبسط بكليتها وتتجلّى بكل ما فيها من انوار وبيران فتحقّق جميع احلامها وتسكب جميع خمورها في كأس الخليقة . . .

وقال لي صوت رابع :

انا رجل وادع ثائر ، عاقل مجنون ترائي يوماً ليّن الملمس كالحرير مصقولاً كالمرآة ويوماً فاغراً فاه فيه نيوب الليوث وباسطاً يداً تحمل اشدّ البراثن فتكاً فكان رأسي يحمل وجهين وجه الحياة ووجه الموت فكن مثلي حكيماً وافرق بين نداك وسيفك فلا تضع احداهما مكان الآخر . . .

وارتفع صوت خامس يقول :

ايها المشرف على عالمنا المتقرس في حياتنا البحرية انظر اليّ انا السمكة الصغيرة تبتلعني السمكة الكبيرة لانها القوة ولانني الضعف ، واليك اشكوها ايها الانسان فهل لك ان تحوّل بطشها عني وتضع في قلبها شيئاً من الرحمة والحنان ، فقلت لها : اينها المستجيرة بي ، ان مابك في الماء هو ما بنا على الشاطىء ، نحن اسماك الارض يأكل كبيرنا صغيرنا ويقتل قويّنا ضعيفنا فسيف القوة مصلت في البرّ والبحر وكأن الاقوياء فيهما يؤلفون عصبة واحدة ويتنادون فكلما رمح الظلم فريسة في بطن الماء رمح مثلها على سطح الارض — الظلم يا سمكتي الصغيرة قديم والظلم في كل مكان فلا تحسدي ابناء الارض ولا تحسبي انك اذا خرجتِ من الماء افلتّ من قبضة الاقوياء ...

ودُرتُ حول البحر اسأله : هل هناك ما يشبهك في الارض فتى رأسهُ متواضعاً وقال نعم : تشبهني الصحارى ولكنها بحور جامدة والليالي ولكنها بحور سود . .

وسألتهُ : كيف انت والافق فقال : نحن شقيقان لفظتنا احشاء امرأة واحدة هي الطبيعة والصلات التي تجمعنا عديدة فلونا واحد هو الزرقة وجبوشنا لا تعدّ ولا تحصى فللافق نجومه ولي موجاتي ، وكلانا رمز العظمة واللانهاية ولكل منا وجهة الغضوب فللافق صاعقته التي يعطس بها ناقمه ولي بركاني الثائر على شاطئي ، وفي قلبينا تستقر الدرر ...

وسألتهُ : كيف انت والصياد فقال بلهجة الفائز : انني آخذ اكثر مما اعطي ، ان غرقاي الذين اغتمهم اوفر عدداً من الاسماك التي يقتنصونها مني ...

وسألته هل انت رجل عصاميّ ايها البحر فاجابني متأسفاً : ان عيبي الوحيد هو انني استمير مجدي وقوتي من سواي فلولا تلك الينابيع والانهار والجداول لما كنت ، انها تغرف فيّ لأحيا وتصبّ فيّ كنوزها لأصبح مثرياً ، انها تعطيني حنينها لاعبّر وتضع في صدري الواحد الملايين من القلوب ليظلّ نابضاً الى الابد ، انا كالقمر يستمير

نوره من الشمس ولولاها لم يكن القمر ، انا البحر ولكنني رجل مدين لا استطيع ان انطح السحاب بانفي الجبّار ...

وسألتهُ عن البخار لماذا ينفثهُ فمه فبدت على وجهه الراحة وقال : اتفثه ليؤلفهُ الافق غماماً ويسكبهُ ماء فيحيي ما يبس في الارض ، انا ابن الحنان ، انا ابن التضامن ، لقنتني امنولته القوى التي تضافرت فولدتني ...

وسألتهُ هل للشعر مكان فيك فاجاب : شاعريتي هي في رعشتي وصور خيالي المتوالية المتعاقبة في هذه الموجات المتعاقبة المتوالية ...

وسألتهُ : كيف انت والظمأ ايها البحر فقال بين الحسرة والدهشة : انا بين ظمأين ظمأي وظمأ الناس فلا في يشرب مائي ولا يرتوي من يشرب مني ...

وسألتهُ عن البراكين التي يثيرها على بعض شواطئه بقوته الدافعة فأجاب : عند ما اغضب الغضبة الكبرى وتعجز الموجة من ان تسمها اطلق بركاني ومن عجائبي انني اخرج النار من مائي ...

وسألته : كيف انت والجبل فقال : الجبل ضيق وانا فسيح ، الجبل مقطب الجبين وانا طلق المحيا ، الجبل صخرة وأنا رعشة ، الجبل عقل صارم وارادة باطشة وأنا قلب خفاق وشعور صارخ ، واذا كان للجبل عقبانهُ على قمته فلي كنوزي في اعماقي ...

وسألته عن الغزاة الفاتحين فقال :

ان لهم بحورهم ولكنها من دمائه وأنا خير منهم فانك لا ترى على جبيني طابع الجريمة .....

وعن الفلاسفة فقال : أنا في كل كرة من كرات شكهم ويقينهم ، انهم يموتون صرعى بين امواجهم التي تغمر كيانهم ...

وعن المنتحرين فقال : انهم يؤرّون موجتي الصارخة على التراب الصامت

وسألته عن هؤلاء العراة الذين يستحمون فيه فهزّ رأسه وقال :

ان مذهب العري ينتشر في العالم ولكن العريان الذي تريده ليس هذا الذي ينزع ثيابه ويستسلم اليّ ليزداد وزنه ولتقوى معدته واعصابه وانما العريان الحقيقي الذي تنشده هو ذاك الذي ينزع عنه اطمار تقاليده واوهامه التي حملته اياها القرون السالفة فتبدو نفسه حرة جريئة طليقة من قيود الجهل والذل

وسألتهُ : كيف انت والموت فقال : نحن لسانان في فم واحد يوم نغضب

وسألته كيف انت والخيانات فقال : اني اعرفها فكم من عقيدة طرحها في ساحيها ولم يسأل عن غده . . .

وسألته : من هم أعداؤك الالداء فقال : القناعة والبخل والكآبة والعقم . . .

وسألته عن الاحلام فقال : ان نصفها يتلاشى في طيّاتي . . .

وسألته عن الابعاد فقال : انها موجات في بحر الخلود . .

وتماديت في الاسئلة حتى خشيت ان يسمّموني البحر فتلقّفني يد من ايادية ولكنني قبل ان تركت الشاطىء وعدت الى صلاة الارض سجدت امام « فينوس » وصليت صلاتي الورقاء فقلت :

يارب الماء

ضع من قلبك في قلبي فتتّسع دائرته ويغزر دمه ، واضرب بموجاتك الصخور القائمة في طريق خيالي واحلامي

غذّ ارادتي لأحطم كآبتي وضعفي ، وارفعني الى مستواك لأبسط كتابي في العالمين . .

انزع مني الجداول والانهار والبحيرات والسواقي واجعلني بحراً . .

انا من عبيدك ايها الاله فينوس ومن المعجبين برعشاتك وصيحاتك فاجعلني من اتباعك وافتح لي صدر الموجة لتضمني اليها . .

افتح عيني لتسمعك كلك وافتح اذني لتسمع جميع اصواتك ...

جمّلني بالصبر والحكمة واجعل صدري رحباً ليسع الناس والوهم والاقدار وطعمها

اغرق فيّ الوجه القبيح من السابقين وابق لي وجهها الجميل وزده جمالاً . . .

أغرق صحراي واجعلني بحراً وخذني أنت لا سواك في يومي الاخير وارحني من وطأة ذلك الحجر البارد الثقيل اللئيم أيها الكريم الرحيم . . .

بيروت راجي الراعي